الآراء الـواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

خلوة مع النفس

صـراع الأجيـال وتجلياتـه الإيجابيـة والسـلبية

كاظم حبيب

حين يخلو الإنسان إلى نفسه ويفكر بصوت غير مسموع، يُفترض أن يكون صريحاً وشفافاً مع النفس، وإلا لما احتاج إلى مثل هذه الخلوة، فهو يعيش حياته اليومية بصورة اعتيادية ويمارس كل ما يرغب به دون عوائق وربما دون مساءلة.

ولكن الأسئلة الذي تطرح على النفس في خلوة ذاتية كثيرة ومعقدة ومركبة أحياناً كثيرة ومتعددة الأوجـه، رغم بساطة صياغتها، منها مثلاً: هل أنـا عـادل مع نفسي ومع غيري من الناس حولي في التعامل اليومي؟ هل أنـا صـادق في تعاملي مع الغير؟ وهل أنا مرتاح الضمير في ما أمارسه من أعمال يومية؟ وهل أنـا راض عن الصراعات التي أخوضها، سواء اعتقدت بأنها مبدئية أم غير مبدئية؟ هل أسئت إلى آخرين بتصرفاتي؟ وهل شعرت بالندم؟ وهل اعتذرت عنها أم ركبت راسي وشعرت كما العزة بـالإثم؟ وهل أفدت غيري في أعمالي أم حولت حياة البعض إلى جحيم؟ بالرغم من أهمية مثل هـذه الخـلوة مع النفس، فهي لا تحصل بين الشباب، وإذا تمت فهي ربما قليلة، ولكن يفترض أن تحصل مع الكثير من كبار السن ممن هم بعمري أو اقل بقليل أو أكثر.

وهو الذي افتقدته لدى الكثير من البشر من جيلي.

كان صراع الأجيال وما يزال حالة صحية وطبيعية ومرتبطة بطبيعة الفرد والمجتمع ومسيرة الإنسان، وهي حالة عالية لا تقتصر على شعب واحد. وصراع الأجيال يتخذ صيغاً شتى وأبعاداً كثيرة ومضامين مختلفة وأساليب متباينة وتمارس فيه أدوات مختلفة. وهو في غالب الأحيان بين التقدم نحو الأمام، حيث يمثله الشباب، وبين المراوحة والتي لا تعني سوى التراجع، حيث يقف فيه كبار السن من أمثالي.كنا نحن اليساريين بشكل عام ولا زلنا نتحدث بثقة عالية عن العلاقة الجدلية الضرورية والصحية بين الأجيال. أي بين الشباب وكبار السن ممن تجاوزوا سن الشباب ودخلوا في الشيخوخة مثلي.

وكان الحديث ولا زال يؤكد على أهمية أخذ الشباب مواقعهم في العمل الذي يستوجب الحركة والفعل السريع والمباشر، وأن يُمنح كبار السن فرصة تقديم الرأي والمشورة أن كانت مطلوبة وضرورية دون أن يزجوا بأنفسهم في معمعان العمل الذي لا ينجزه غير الشباب من النساء والرجال.

وإذا كان من واجب الشباب احترام كبار السن والإصغاء إلى أرائهم، فأن هذا لا يعني أبداً أن عليهم الأخذ به من جانب، كما أن من واجب كبار السن احـترام الحيوية والطاقة والقدرة على التجديد والمبادرة لدى الشباب وفسح المجال لهم للعمل والإبداع دون عوائق من جانب آخر.

وأن النقد من جانب كبار السن يفترض أن يأخذ بالاعتبار الصيغة التي يفترض أن يُقدم بها، فكأس الماء الـذي فيه حتى النصف مـاء، يمكن أن يعبر عنه بصيغتين: نصف مليان أو نصف فارغ، ورغم أنهما حقيقة واحدة، ولكن الاختلاف في النظرة الإيجابية في الحالة الأولى والسلبية في الحالة الثانية. وحين ينسى كبار السن هذه الحكمة التي جاءت في كتاب ليو شاو شي قبل ما يزيد على ستة عقود على أهمية أن يخلو المناضلين إلى أنفسهم أولاً، وأهمية احترام دور الشباب وعدم منافستهم في العمل ثانياً، تنتهي الأمـور إلى صراع قاهر لا فائدة فيه بل يلحق أضراراً بالجميع.

وغالباً ما خرق أصحاب هذه الحكمة والمتحدثون بهذه القاعدة العمرية. فلو ألقينا نظرة على الاتحاد السوفييتي السابق وبقية الـدول "الاشتراكية" لوجدنا أن القائد السياسي الحزبي يلتزم بقاعدة أخرى على النقيض منها وهي حين يصل إلى القيادة عليه أن يبقى فيها حتى الموت. وعلينا أن نتذكر في هذا الصدد والتر أولبريشت، إيرك هونيكر، وماو تسي تونك وكيم أيل سونك وليونيد بريجنيف وغيرهم من قادة الدول والأحـزاب الشيوعية في الدول الاشتراكية السابقة.

وكـان الإنسـان يلاحظ هـذه الظاهـرة في اتحاد النقابات العالمي وفي حركة السلام العالمية على سبيل المثال لا الحصر.وها نحن نشهد هذه الظاهرة في العديد من المجالات في بلداننا العربية، سواء أكانوا قادة سياسيين أم قادة أحزاب سياسية.

كما نلاحظ هذه الظاهرة في العراق، سواء أكان الأمر في الداخل أم في المهجر، حيث نتلمس صراعاً على المواقع في المنظمات غير الحكومية مثلاً يجري بين الشبيبة، [التي يمكن أن تخطأ في العمل وتتعلم من أخطائها، ومن لا يعمل لا يخطأ ولكنه يرتكب أكبر الأخطاء حين لا يعمل]، وبين كبار السن الذين يعتقدون أنهم لم يخطئوا يوماً في حياتهم أبداً! وأن على الآخرين التعلم منهم لأنهم كبار السن وأصحاب معرفة وخبرة طويلة بالعمل.

وسرعان ما يقود هذا الشكل من الصراع إلى طلاق بين الأجيال في وقت نحن جميعاً بأمس الحاجة إلى التفاعل بين الشباب وكبار السن من أمثالي، لا تنافس على المواقع في المنظمات المهنية بل تفاعل ودعم للشباب من النساء والرجال في مواقعهم ومساعدتهم على إنجاز مهماتهم والتسامح معهم عند وقوع الأخطاء، وتجنب ارتكاب الأخطاء من جانب كبار السن.

على كل منا أن يتذكر حين كان شاباً كيف كان يمارس إنجاز المهمات وكيف كان الكبار ينجزون مهماتهم، وهي الحالة التي تتكرر الآن، ولكن بتبادل المواقع.

أتمنى على أصدقائي ممن بلغ السن التي بلغتها أن يخلو إلى نفسه ويفكر بعمق ومسؤولية إلى مواقفه الذاتية ويمارس بجرأة النقد الذي يجب أن يمارسه لكي يستطيع أن يؤكد مصداقيته أمام نفسه وأمام الآخرين. ربما ما استطعت أن أخلو إلى نفسي من جديد لو لم أكن قد مارست النقد الضروري بصوت مرتفع للأخطاء غير القليلة التي ارتكبتها في سالف الأيام وربما في الوقت الحاضر أيضاً.

من آثـار الزوابـع الثوريـة:

الاشـتراكية العربيـة والدمـار الاقتصـادي والثقـافي والاجتماعـي

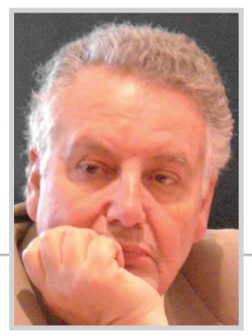

شاكر النابلسي

قرأنا في الأسبوع الماضي، كيف كانت آثار الدمار السياسي للعاصفة الاشتراكية في الوطن العربي عامة، وفي مصر خاصة. وكيف أن الاشتراكية حالت دون تحقيق الوحدة. وحالت دون تطبيق الديمقراطية. وأنها أطاحت بكافة الإيديولوجيات الخاصة بالوحدة، والحرية، والديمقراطية. وأنها صدَّعت الجبهة الداخلية. وأنها فصلت الحركة الاشتراكية عن فلكها القومي. وأنها أصبحت وسيلة من وسائل الاستيلاء على السلطة. وأنها أخيراً، أثارت اليمين العربي على اليسار العربي، وجعلت منه عدواً لدوداً.

أسئلة كثيرة تتطلب الإجابة عليها

– فهل هذا كل ما تركته الاشتراكية من دمار؟

– أم أن هناك دماراً آخر كالدمار الاقتصادي والاجتماعي والثقافي وخلاف ذلك؟

– وهل لا يوجد للاشتراكية العربية التي عصفت بالعالم العربي في فترة العشرين سنة الأولى من النصف الثاني للقرن العشرين، أي فضل أو ايجابية على العرب؟

– وهـل الاشـتراكيـة العربيـة في العهد الناصري على وجه الخصوص هي المسؤولة عن كل هذه الآثـار التدميرية التي خلفتها عاصفتها التي استمرت قرابة عشرين عاماً (١٩٥٢–١٩٧٠)؟

هل كان الإصلاح الزراعي رشوة للفلاحين؟

ففي مصر صدر قانون الإصلاح الزراعي عام ١٩٥٢، وتبعتها سوريا والعراق في ١٩٥٨ ، وتبعتها الجزائر في عام ١٩٦٢، وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ١٩٦٨ . ونلاحظ أن الإصلاح الزراعي قام في الدول ذات الأنظمة الثورية، مما اعتبره البعض رشوة من الثـورة للفلاحين لكي يدعموا الثورة، ويقفوا في صفها ضد أعدائها من البرجوازيين والاقطاعيين "مصاصي الدماء" كما كان إعلام هذه الدول الرسمي يصفهم آنذاك.

ولكن الإصـلاح الـزراعـي يعتبر سياسة اجتماعية، أخذت به وطبقته أكثر من مائة دولـة في العـالم. وهـو مـا أكـده "المؤتمر العالمي للإصلاح الزراعي والتنمية الريفية WCARRD"، الذي انعقد في روما في ١٩٧٩ وحضرته ١٤٣ دولة، من أن الإصلاح الزراعي يؤلف عنصراً حاسماً لا غنى عنه للتنمية الريفية، كما يقول صلاح الـوزان، في بحثه عن "الإصلاح الزراعي". فهل كان هذا هو هدف الإصلاح الزراعي في الدول العربية، ذات الأنظمة "الثورية"؟أم أن الإصلاح الزراعي كان للانتقام من الإقطاع، الذي كان يعادي الثورة في الدول العربية السابقة الذكر. وأن رجـال الثـورة الذين حكموا تلك البلدان العربية، جاءوا من طبقات فقيرة، لينتقموا من الأغنياء والإقطاعيين، ويعزلوهم عزلاً تاماً كما تم في عام ١٩٦٢ في مصر (أنظر: خالد محمد خالد، "دفاع عن الديمقراطية"، ١٩٨٥، ومحضر الحوار الذي دار بينه وبين عبد الناصر في "اللجنة التحضيرية"، عام ١٩٦٢، حـول الإقطاع والعزل السياسي ومطالبة خالد "بالعدل" السياسي بدلاً من "العزل" السياسي، ص ٢٧٩-٣٤٣).

الاشتراكية والاقتصاد التبعي

لا شك أن فشل وانهيار المشروع التنموي الاشتراكي، كان سبباً في تحوّل جزء كبير من الاقتصاد العربي إلى اقتصاد تبعي، وإن كان هذا الاتجاه قائماً قبل القرارات والتطبيقات الاشتراكية، وانحسر قليلاً أثناء الستينات والسبعينات من القرن الماضي، بفضل هذه القرارات، وتحوّل جزء منه من التبعية للغرب الرأسمالي إلى التبعية للشرق الشيوعي. إلا أن تبعية الاقتصاد العربي للغرب الرأسمالي، عادت بعد الثمانينات والتسعينات نتيجة لفشل المشروع الاشتراكي على المستوى الإقليمي، وعلى المستوى القومي.

كذلك، فقد أدت الاشتراكيـة إلى هجرة رؤوس الأمـوال العربية الكبيرة من وطن التطبيق الاشتراكي إلى الغرب، مما خلق مشكلة اقتصادية كبيرة في الدول التي تم فيها التطبيق الاشتراكي. وأحجمت رؤوس الأموال الأجنبية عن دخول أسواق التطبيق الاشتراكي في العـالم العـربي، خـوفاً من التأميم والمصادرة، ومنع تحويل العملة إلى خارج هذه البلدان.

تهجير الكفاءات العربية وزيادة أعباء المستهلك

كما أدى التطبيق الاشتراكي في بعض الدول العربية التي كانت توصف بالثورية، إلى هجرة الكفاءات العربية العلمية والعملية اللاحزبـية إلى الـغـرب. واشتغالها في مؤسسات الغرب العلمية وفي مصانعها، مما أفقد العـالم العـربي الـذي طُبّقت فيه الاشتراكية، ثروة علمية، وعملية ضخمة، وترك هذه البلدان بدون كوادر علمية قادرة على تحقيق التنمية والنهضة الاقتصادية الجديدة.

ولا ننسى أنه في ظل الاقتصاد الاشتراكي في البلدان "الثورية" التي طبقت الاشتراكية في المجال الاقتصادي، زادت نسبة الاستيراد، وزاد تهريب البضائع المستوردة، عما كانت عليه في السابق، نتيجة لسوء المواد الاستهلاكية المصنّعة محلياً، وغلاء أسعارها مقارنة بأسعار المواد الاستهلاكية المستوردة ذات النوعية الجيدة. وزاد هذا كله من أعباء المستهلك. وبـدأت مؤشـرات الفقر تظهر بصورة أكبر مما مضى.

أين الخطأ؟

إن الخطأ الأكبر الذي وقع فيه الاشتراكيون العرب في هذه المرحلة، هو أنهم قبل تطبيق الاشتراكية، لم يسألوا أنفسهم أسئلة ثلاثة مهمة هي:

ماذا سنُنتج؟ ولمن سنُنتج؟ وماذا سيكون عليه سعر السلعة التي سيُنتجها الاقتصاد الاشتراكي؟

والسؤال الأهم:

من هم الذين سيجيبون عن هذه الأسئلة إجابـات علمية دقيقـة، حتى لا تذهب باقي البلدان العربية في مصيبة كبيرة، وكارثة عظيمة، كما حدث ذلك في البلدان العربية "الثورية"، التي تم فيها التطبيق الاشتراكي؟

الاقتصاد وجدول الضرب!

لم يشهد تاريخ الاقتصاد الإنساني فوضى في الآراء والمعطيات والنتائج كما شهد في تلك الفترة التي مرت بالعالم العربي في الستينات والسبعينات من القرن الماضي. فالناس كلها – ومعظمهم يجهل جدول الضرب ويخطىء فيه – أصبحت تتحدث في الاقتصاد، لأنها أصبحت تتحدث في الاشتراكية. ومن المعلوم أن الاشتراكية العلمية هي "علم" اقتصادي مدرسي، من أصعب العلوم في التاريخ. وصعوبته متأتية من أن التجربة في العلوم الأخرى كالكيمياء والفيزياء والهندسة والطب ممكنة ومحدودة الضرر وسريعة النتيجة في كل هذه العلوم ما عدا علم الاقتصاد، الذي لا تظهر نتائجه إلا بعد سنوات طويلة.

دُكان السمَّان وأسعار الباذنجان!

فلكي تطلق صاروخاً تجريبياً مثلاً، سوف تعلم نتيجته خطأ أو صوابا بسرعة، وسوف تكتشف في مـدة محـدودة مـا يجـب عمله لإصلاح الخطأ إن وُجد، كما أن خسائره تبقى محدودة مهما بلغت. ولكن، إذا أردتَ أن تُطبِّق نظرية اقتصادية رأسمالية، أو اشتراكية، فإنك بحاجة إلى أن تنتظر وقتاً طويلاً لكي تعرف النتائج. وربما تعاقبت أجيال وأجيال، قبل أن تعرف إيجابية نتائج التجارب، أو سلبيتها. كما أن عدم نجـاح هذه التجربة، يترك دماراً، وكارثة عظيمة للمجتمع. ومن هنا، كانت حسابات الاقتصاديين دقيقة جداً، وحذرة جداً، وبطيئة جداً كذلك.

ومـن هنـا، كـان علـم الاقتـصـاد هـو علم الرياضيات. ولعل أكبر كمية من الرياضيات موجودة في علـم الاقتـصـاد. ورغـم هذه الخـصـوصـيـة العلـمـيـة الـصـعبة في علم الاقتصاد، إلا أن هذا العلم أصبح في العالم العربي في تلك الفترة لعبة الكبير والصغير، والـغـنـي والـفـقـير، والـعـالـم والـجـاهـل، والسياسي الذي لا يعرف من علم الاقتصاد إلا "دكان السمَّان" (السَمَّان في لهجة أهل الشام تعني البقّال)، وأسعار الباذنجان. فعمَّت الفوضى، وتاه الناس في الطريق.

الفكاهة في أدبيات الاشتراكية

ومع انهيار الاشتراكية السوفيتية، وفتح أسواق الصين للتجارة الغربية ومنتجاتها، وتحوّل الصين من الاقتصاد الاشتراكي إلى الرأسمالية، ومن الماوية (نسبة إلى ماوتسي تـونج) إلى الأمريكية، وإفلاس الاقتصاد الكوبي، أصبحت قراءة أدبيات الاشتراكية التي كانت سائدة في النصف الثـاني من القرن العشرين، في بعض أجزاء من العالم العربي، باباً من أبواب التفكه، ووسيلة من وسائل الفرجة على مصائب الناس. إذ لم يعد من اشتراكية عبد الناصر إلا الصدى البعيد والحسرات، ولم يعد من اشتراكية البعثيين إلا الشعار المرفوع. وانتفى مفهوم التنمية عن الفكرة الاشتراكية التي تلاشت شيئاً فشيئاً من خطاب الإيديولوجيا القومية، كما يقول الناشط السياسي السوري ميشيل كيلو (نتائج انهيار الإيديولوجيا القومية على وحدة الدول والمجتمعات القومية).

الكتاب الاشتراكي بعد الرغيف الاشتراكي

في نهاية الخمسينات، وطوال فترة الستينات من القرن الماضي، تحوّل جزء كبير من الثقافة العربية وعلى وجه الخصوص المصرية منها والسورية إلى الثقافة الاشتراكية. وامتلأت المكتبة العربية بترجمات من الأدب الاشتراكي. وانتشرت مفاهيم النقد الاشتراكي وأدب العامة والأدب الاشتراكي والفن الاشتراكي ومسرح الجماهير العريضة وخـلاف ذلك، مع تغييب ونفي للثقافة الغربية التي رُميت بالتزوير، وعدم الصدق، وعدم التعبير عن آمال وأحلام الجماهير. ودارت معارك كبيرة بين دُعاة ثقافة "الالتزام" وثقافة "الإلزام"، وبين دُعاة "الفن للفن" و "الفن للحياة".

الأنغلونزا الاشتراكية والعدالة

كان للأنغلونزا الاشتراكية، التي أصابت المجتمع العربي بالزكام الموسمي وخاصة المصري منـه، حيث التطبيق الاشتراكي الأوسع، نتائج سلبية منها:

إيقـاف مشاريع تنظيم الأسـرة والحـدّ من الـزيـادة الكبيرة في عدد السكان، وخاصة في مصر، خوفاً من أن يقول الناس، كما كان يتردد في مصر: "لقد أخذ عبد الناصر المال، وسيأخذ البنين". وبـذا، تعطلت مشاريع الإصلاح الاجتماعي، التي كانت الاشتراكية تهدف إليها.

ويقول غسّان سلامة، المفكر والأكاديمي، ووزير الثقافة اللبنانية سابقاً، في معرض تعليقه على ندوة "القومية العربية"، وهو المقتطف من كـلام للمفكر السـوري الأصل الأمريكي الجنسية جليم بركات: "إن معظم الأنظمة التي كانت تُسمّي نفسها اشتراكية، فشلت في تحقيق العـدالـة، لأنها حـدّت من المشاركة الشعبية، في عملية التحول الثوري." ("القومية العربية في الفكر والممارسة").

فضل الاشتراكية على العرب

ورغـم كـل هـذه الـكـوارث الـتـي تركتها الاشتراكية، إلا أنها تبقى بما تركته من أدبيات، وتـراث اجتماعي، وسياسي، واقتصادي، علامة فارقة في التاريخ العربي الحديث، ذات بصمات واضحة، لا يمكن تجاهلها، أو الإقلال من شأنها. وهي بلا شك قد وضعت المدماك الأول في الحداثة العربية والمعاصرة العربية، بما إتاحته من فرص للتعرف على الفكر الأوروبـي الغربي والشرقي في هذا المجال، وبما قادته من معارك لمحاربة التخلف العربي، والتسلط الأجنبي. وبما فتحته من آفاق على العالم الثالث. كما أنها إضافة إلى كل هذا وذاك، "أصبحت أيديولوجية رسمية لأكبر وأهـم دولـة عربية كان يتأثر بوزنها الثقيل سياسياً وثقافياً كل قطر عربي مشرقاً ومغرباً." (محمد عابد الجابري ، "المشروع النهضوي العربي"، ص ١٠٦).

منطقة محررة

فـي وصـف الـقـتـلـة.. فـي قـتـل هـمـنـغـواي

نجم والي

أولهم، مربوع الجسم، ثخين الرقبة، سميك الشارب، لم يضف اللون الأسود الذي صبغه به مع شعر رأسه، عليه شباباً أو حيوية، على العكس، ولا حاجة للمرء لأن يتطلع به طويلاً، ليكتشف فيه النسخة الأصيلة من سحنة سفاح قديم ومتمرس خبرنا الموت على يديه؛ ثانيهم خبيث الشكل، عجوز لبس نظارات طبية، ضخم الجثة، كرشه الذي خرج من بدلته الرخيصة جعله يبدو مضحكاً في الصورة؛ ثالثهم ضخم الجثة أيضاً، في منتصف خريف عمره أصلع قليلاً، لبس نظارات طبية، ضحكته الخبيثة لم تستطع تغطية لا أسنانه الرثة ولا فمه المتراخي؛ رابعهم صحيح أنه أقل سمنة من الأول، لكن آثار الرخاء والراحة والعطالة بانت على وجهه بوضوح، أما شاربه وشعر رأسه اللذان إحتفظا ببقايا صبغ أسود قديم، لم يستطيعا التغطية على هيئته التي بدت أقرب لشخصية متصنعة في كل حركة، رغم أنه أراد بالتأكيد عن طريق تركهما دون صبغ في ذلك اليوم أن يمنح شخصيته بعضٍ الوقار، بعض المصداقية، فتلك هي عيناه تبثان شرراً قادماً سيكون أكثر خطورة ودموية مما كان عليه حتى اليوم؛ خامسهم، قصير القامة، رأسه الصغير تحول كله إلى صلعة، نظارته الطبية السميكة لم تساعده بالنظر بعيداً عن أرنبة أنفه المفلطح، أو كرشه الذي لم يضف إلى شخصيته الوقار، صحيح أن نظارته تلك حجبت عنا رؤية عينيه، لكن يكفي النظر إليه بكليته، أو على الأقل لبطنه التي ترهلت كثيراً، لشاربه الكث الجديد الذي أراد عن طريق إطلاقه له تقليد الأول أو تقليد سيد له قديم، ليكتشف المرء كيف أن الكائن الغريب هذا الذي لا علاقة له بجنس وأنس، بدا بقامته التي تراوح طولها بين المتر وخمسة وخمسين سنتمتراً وببدلته التي أراد أن يبدو بها أنيقاً، أقرب إلى طرطور، أو إلى مسخ "ألين" قادم من أزمنة غابرة، عصور سحيقة دخلت في طيّ النسيان.لكن الأكثر غرابة في الأمر، هو أن الخمسة هؤلاء، مهما إختلفوا في كمية صبغ الشعر والشارب، في السمنة أو في الصلعة، في االقصر أو في الطول، في طريقتهم بالحديث أو في إطلاقهم الوعيد، فإنهم إجتمعوا في أمر واحد وحسب، إجتمعوا في سحنتهم الصفراء، وبالتأكيد هو فقر الدم التاريخي هذا فيهم، الذي صنع منهم عطشى أبديين لمصّ الدماء، لا ينفعهم تغطية وجوههم بالمساحيق الرخيصة في هذه المناسبة أو تلك، لأنهم ما أن يفتحوا أفواههم ثانية واحدة، حتى تبين أسنانهم المنخورة التي تحولت إلى أنياب، كأنهم أرادوا منافسة كل دراكولات التاريخ، عطشهم للدم لا يُروى، وكلما رأوا دماً مسفوحاً، كلما زاد النهم فيهم لمجازر قتل جديدة، لا يستطيعون النوم، إلا بعد سماع صراخ ضحاياهم، فراشهم الذي ينامون عليه محشو بالجثث، أغطيتهم التي يتدثرون بها جلود بشر، مخداتهم التي يريحون رؤوسهم عليها، جماجم وبقايا عظام، وفي الصباح لا يفيقون إلا على منظر جثة تُقدم لهم على طبق مغطى بالدم، فطارهم أحشاء بشرية، شرابهم عصير دماء، وخبزهم طحين عظام أطفال، ذلك هو طقسهم اليومي، البشرية تحتفي بالنهار ما أن تبدأ الشمس بعملها، أما هم فيحتفون بالنهار ما أن تبدأ ماكنة الموت بعملها اليومي بالقتل، مع أول قتيل أو جثة، طفلاً كان أو عجوزا، رجلاً كان أم إمرأة، حيواناً كان أم جماد، المهم أن هناك قتلى لا يُحصون ودماء تسيح في البالوعات، فقط بهذا الشكل يشعر هؤلاء بالراحة، يسترخون في بيوتهم، يراقبون جهاز التلفاز، في أيديهم أجهزة ريموتير، يدورون من محطة إلى أخرى، ويمكن أن تطول جلستهم وتطول، فها هم ضمنوا وجبات غذائهم في ذلك اليوم، البشرية تأكل يومياً ثلاث وجبات على أقل تقدير، أما قتلتنا هؤلاء، فمن الصعب عليهم أن يشبعوا، ولو تُرك الأمر إليهم، لأفترسوا ضحاياهم كل ثانية، للعقوا البالوعات، ولكن ما العمل؟ في بعض الأيام تهرب ضحاياهم منهم، رغم كل الكمائن التي أعدوها لهم، رغم كل المفخخات وخبراء التفجير القادمين من كل حدب وصوب، وفي تلك الأيام فقط، في تلك الأيام التي يشح فيها القتل، يغادر قتلتنا هؤلاء بيوتهم المحصنة بجثث الآخرين، يتركون مكاتبهم العفنة، المزينة بأعضاء بشرية، يدورون مثل ذئاب مفترسة، لعابهم يسيل، يمكن شمّ رائحته في كل مكان، وعندما يطول البحث بهم، عندما لا يعثرون على ضحية بعد الآن، يفكرون في كيفية خروجهم من الورطة، فيقررون تنظيم لقاء لهم، مهرجان ضخم، عرس للدم، لابد لهم من البحث بالأمر، من التخطيط سوية للقتل، لتقاسم غنائهم من الموتى، ولا بأس أن يطلقوا على مهرجانهم هذا "أول مهرجان علني للمقاومة العراقية" (كما سمته الصحيفة الناطقة بإسمهم، صحيفة عراقية تصدر في لندن: "أول مهرجان للمقاومة العراقية")، مصاصو الدماء التاريخيون يصمتون عادة في مناسبات مثل هذه، يكتفون برقصة الموت، لا يُسمع لهم إلا الفحيح، أما مصاصو دمائنا هؤلاء فمن الصعب عليهم غلق أفواهم الشرهة، ذلك هو ديدنهم، التكشير عن أنيابهم المتآكلة التي يعالجونها عن طريق أكل اللحوم البشرية ومصّ الدماء، يطلقون تهديدات ووعيد، الويل لكل ضحية نجت بجلدها منهم:أولهم الذي يحمل لقب أمين سر حزب البعث/قيادة قطر العراق، قال أنهم لم يختاروا يوم إحتفالهم عبثاً، "أنها مناسبة عزيزة على قلوبنا"، وهو يقصد مناسبة عيد ميلاد نسخته الأصلية، مصاصّ الدم الأول، صدام حسين، ثانيهم الذي حمل لقب دكتور قال أنه الناطق الرسمي بإسم الحزب الشيوعي العراقي/ إتحاد الشعب، صرح، بأنهم يحتفلون في ذلك اليوم "بذكرى إنطلاقة الرصاصة الأولى في يوم ٢٠٠٩/٤/٩ في حي الأعظمية في مدينة بغداد وقتل جندي أميركي" حمل لقب "همنغواي" (كذا حرفياً)، ثالثهم الذي عرف نفسه بأنه الناطق الرسمي بإسم منظمي المهرجان، فأوضح، "أن الغاية من جمع الفصائل توجيه رسالة إلى الشعب العراقي، أننا في بلاد المهجر مع المقاومة نقف وندافع عنها ونرفدها بالرجال"، رابعهم الذي أطلق على نفسه ممثل هيئة علماء المسلمين، فقد صرح، "أن المقاومة العراقية هي استجابة لواجب شرعي وقطري وقد كفلت المواثيق الدولية هذا الحق الساعي إلى التحرير والإستقلال"، أما خامسهم، الذي كان هو الآخر ذات يوم شيوعياً، والذي حمل هو الآخر لقب دكتور، لقب ربما إشتراه بلاشك في أحد أسواق مدينته التي ترعرع فيها، الثورة قبل أن تحمله ما تحمله من أسماء أخرى، فكان أكثرهم زعيقاً، كأنه أراد الإنتقام من ماض يخجل منه، صرح، "أن الإحتفال بدعم المقاومة هو رسالة قوية إلى كل الأطراف العراقية في الداخل والخارج، وأن هناك قوة جديدة تأخذ على عاتقها مهمة طرح برنامج تحرر يعيد توحيد العراقيين حول المقاومة بإعتبارها الخيار الوحيد" ، دون أن يرف جفن لهذا الدكتور المزيف هذا بأن المقاومة التي يقتل شاربه الكارتوني لها بفخر، قتلت آلاف الناس، شيوخاً أطفالاً، نساءً ورجالاً، حيوانات وجماداً، ومنهم وقعوا ضحايا مضرجين بدمائهم ليس بعيداً عن داره التي سكن فيها حتى هروبه من هؤلاء الذي يشاركونه مصّ الدم اليوم في السبعينات، بالضبط في منطقة ٥٥ وغيرها من مناطق مدينة الثورة التي كما يبدو دماء أبنائها تثير شهية المجتمعين في سوريا، هل يستطيع الأدب وصف هؤلاء؟ هل يصلح هؤلاء أن يكونوا شخصيات في رواية أو قصة، أو موضوع لوحة تشكيلية أو أغنية غاضبة، أو قصيدة هجاء؟ منذ القدم والأدب لا يتعب من تزويدنا ببورتريهات قتلة نمونجيين، من ينسى قتلة دوستويفسكي وآخرين؟ شخصياً أجيب صراحة، بأنني عاجز عن وصف هؤلاء، ليس لأن لاقدرة لي على وصف سفاحين ومصاصي دماء، بل لأن أشكالاً على نمط هـؤلاء لا يضيفون معرفة بالكشف عن سيكولوجية قتلة آخرين، أنظروا إليهم جيداً، أنهم يتناسخون عن بعض مثل نبات الفطر، ومهما طلوا وجوههم بالمساحيق، مهما لبسوا من بدلات وأربطة عنق، لا تمايز بينهم، لا في سحناتهم ولا في طريقتهم بالمشي أو بالكلام: وجوههم صفر دائماً، نظراتهم عطشى لمنظر الدماء. ذات مرة كتب صاحب النوبل الكولومبي غارسيا ماركيز وهو يصف الديكتاتور الفينزويلي هوغو تشابيز، بعد أن قادنه المصادفة أن يجلس إلى جانبه في الطائرة، بأن تشابيز يملك وجهين، الوجه الأول الشرير الذي يكشف عنه مباشره، والوجه الثاني المخفي، لكنه الأكثر شراً.من رأى حفنة القتلة ومصاصيّ الدماء التي إجتمعت في يوم الخميس المصادف ٢٩ أبريل/ نيسان الماضي في العاصمة السورية، دمشق، تحت إسم "الجبهة الوطنية والقومية الديموقراطية" السيئة الصيت، سيذهب إلى نفس ما ذهب إليه إبن العم ماركيز: في يوم الخميس الماضي ذلك، في يوم إجتماع القتلة في دمشق، والذي صادف يوم عيد ميلاد سفاح بغداد الأول، أبيهم الذي ورثوا عنه القتل: المقبور صدام حسين، عرفنا للمرة الأولى أن حفنة القتلة هذه تملك وجهين، وجهها الأول الشرير الذي أخرجته للعلن في دمشق، وجهها الذي سبق لنا وأن خبرناه على شكل قنابل ومفخخات، أما وجهها الثاني الذي ما يزال مخفياً، فهو الأكثر شراً وقتلاً، و"القادم أشد خطورة ودموية"، كما حذرتنا الناطقة الرسمية بإسمهم و... وجههم الأنثوي القبيح!